الاعتذار خلق الكبار

يحسن بالعاقل الفطن إذا وقع منه الخطأ على الآخرين أن يبادر بالاعتذار؛ فلكل ذنب كفارة، وكفارة الخطأ على الآخرين هو الاعتذار منهم، كما قيل:

قيل لي قد أسا إليك فلانٌ ... ومُقامُ الفتى على الضيم عارُ
قُلتُ قد جاءنا فأحدث عُذراً ... دِيةَ الذنب عندنا الاعتذارُ[(١)]

وإن من أشق شيء على الإنسان أن يعترف بخطئه على الآخرين، فقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، لا يخلو من الكبر والبغي والاستطالة إلا من رحم الله.

وإن اللبيب الموفق مَنْ إذا أخطأ على إنسان بادر واعترف، وتأسف واعتذر؛ وأظهر الندم الصادق، وآثر ذل الدنيا على عذاب الآخرة.

وإن الاعتراف للآخرين بالخطأ، والاعتذار إليهم يُذْهِب الهموم، ويدفع الحقد، ويبعث على الطمأنينة، ويَشدُّ حبل المودة.

وإنك حين تعتذر؛ فإنه لا يعني بالضرورة أنك مخطئ؛

(١) نسبه في الدر الفريد (٨/ ٣٨١)، لابن المعتز.

بل يعني أنك تنازلت عن حقك؛ مراعاة لقريبك الأكبر، أو أستاذك الأجل، أو صديقك الأعز، وهذا دليل شهامة، وكمال مروءة، كما قيل:

خيرُ الخليلينِ من أغضى لصاحبِهِ ولو أرادَ انتصاراً منه لانتصرا[(١)]

وإن أكمل الاعتذار وأبلغه أن يقع الخطأ منك واضحاً على من هو أضعف منك من ولد وزوج وخادم وتلميذ، ثم تعلنها صريحة أمامه قائلاً: لقد أخطأت بحقك فسامحني.

فمن قالها فهو يملك شجاعة أدبية، وأخلاقاً رضية.

ومن استنكف عن قولها، وجمح إلى هواه، فلم يبذل اعتذاراً، ولم يطلب غفراناً، ففي نفسه لوثة كبر خفية.

وما أوقع الوحشة في نفوس بعض الناس حين يقع بينهم الخطأ إلا استنكاف الخاطئ عن الاعتراف بخطئه، وامتناعه من الاعتذار ممن جهل عليه، فيحُلُّ في القلوب السخيمة والشنآن، وتقع القطيعة والهجران.

إن ذلك الإنسان الذي يخطئ على الناس، ويصر على الخطأ، ثم لا يَهُمُّ بالاعتذار، فضلاً أن يبادر به، فهذا إنما يكشف عن نفسه الموبوءة المريضة؛ ويجني عليها:

فمن هابَ الرِّجالَ تهيَّبوهُ ومَن حقَر الرِّجالَ فلن يُهابا[(٢)]

---

(١) نسبه في تاريخ دمشق (٤٣٧/٤٧) إلى يزيد بن محمد بن المهلب.
(٢) البيت للحسين بن مطير كما في غرر الخصائص الواضحة (ص٢٤).

وإن من أقبح شيء في ذلك أن يجهل أحدهم على الآخرين جهلاً بيِّناً، ثم يتمادى في جهله، فيرفع عقيرته بأنه صاحب الحق.

ومن أمثلة ذلك أن يقع بين مدير وأحد موظفيه موقف، يكون الموظف فيه صاحب الحق، ولكن تأبى نفس المدير الاعتراف بالخطأ، فإذا كان هذا المدير دنيء النفس وشَى به عند صاحب القرار، حتى توقع عليه العقوبة، ونسي هذا المدير بأن على الباغي تدور الدوائر.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن تسير في سيارتك في المسار الصحيح، ثم يعترض عليك أحدهم بسيارته خطأ، فإذا جاوزته نظر إليك نظرة المكسور المظلوم، وتلفَّظ عليك كأنك المخطئ الظلوم!

عجبتُ لهُ يجني ويصبحُ عاتباً فواعجباً من ظالمٍ يتظلَّمُ[(١)]

واللبيب الموفق من إذا ظن أنه جرح أحداً من الناس، فإنه يبادر بالاعتذار، وبيان الأمر؛ وهكذا كان يفعل نبينا محمد ﷺ فقد أهداه الصعب بن جثَّامة حماراً وحشيّاً وهو بالأبواء، فرده عليه رسول الله ﷺ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهه قال: «**إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرُم**»[(٢)].

---

(١) البيت لصفي الدين الحلي كما في ديوانه (ص٦٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٢٥)، ومسلم (١١٩٣).

وهذا من حذقه ﷺ في قراءته للنفوس، فإنه لما رأى تغير وجه الصعب حين رد هديته، بادره وطيَّب خاطره ببيان العلة في رد هديته، وهذا الحديث من الأحاديث الأصول في مراعاة مشاعر الناس.

والذي ينبغي للمسلم أن يكون صادقاً في عذره، فإن لم يكن هناك عذر واضح، فليعترف بزلته، ويطلب العفو، ولا يتكلف الأعذار، كما قال محمود الوراق:

إذا كان وجهُ العذر ليس ببيّنٍ ... فإنَّ اطّراحَ العذر خيرٌ من العذرِ(١)

ويتأكد في حق من اعتُذر منه أن يقبل العذر، وينأى عن الملام؛ فالعذر عند كرام الناس مقبول، حتى ولو كان وجه العذر ليس ظاهراً؛ تأسياً بالنبي ﷺ؛ فإنه لما جاءه المخلَّفون عام تبوك، وطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، قبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وهو مع ذلك لا يصدق أحداً منهم؛ بدليل أنه لما جاءه كعب بن مالك رضي الله عنه وأخبره بحقيقة أمره، قال: «**أما هذا فقد صدق**»(٢).

وقد قال الشافعي:

اقبل مَعاذيرَ من يأتيك مُعتَذراً ... إنْ بَرَّ عندك فيما قال أو فَجَرا

فقد أطاعك من يُرضيك ظاهرُهُ ... وقد أجلَّك من يعصيك مستِترا(٣)

---

(١) الكامل للمبرد (٢/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٠)، ومسلم (٧١٦).

(٣) ديوان الإمام الشافعي (ص٦٠).

وإن مما يزعج النفوس، وتضيق به الصدور، أن تسمع عن ضغينة بين أخوين، أو أختين، أو موظفين، أو جارين، ثم يبادر أحدهما الآخر بالاعتذار، ويطلب فتح صفحة جديدة، والآخر يأبى ويصر!

أليس لهذا الذي رد الاعتذار قدوة بيوسف عليه السلام وقد قال له إخوته: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ [يوسف: ٩١] فأجابهم مباشرة: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ [يوسف: ٩٢] ولم يستعرض تاريخهم الأسود معه؛ بل عفا وصفح؛ وهذا غاية الكرم.

يقول الحسن بن علي: «لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه، واعتذر في أذني الأخرى لقبلت عذره»(١).

إن الحياة قصيرة، لا تستحق كل هذا الإصرار، والتعنت في قَبول الاعتذار!

وإن مما يقوِّي المسلمَ في قَبول عذر أخيه، استشعارُه أنه ربما احتاج لمثل هذا الموقف الذي وقفه أخوه أمامه، فهل يسرُّه حينَها أن يُردَّ خاسئاً وهو حسير؛ فكما تدين تدان.

فما أجمل ذلك الأب الذي لما أتاه ابنه يلقي معاذيره، قبل عذره، وبرَّأه من الملام، وأسبغ عليه عبارات الحب والقَبول.

---

(١) الآداب الشرعية (١/ ٣٠٢).

وأكرم بذاك الزوجِ الذي لما اعتذرت إليه زوجه من التقصير، نفض عنها غبار اللوم، ووجد لها في ذلك عذراً بيناً، ووارها بلباس الصفح والستر.

ولله در ذاك الصديق الذي لما أتاه صاحبه معتذراً إليه من هفوة فرطت، أو سقطة بدت ـ بادره بقَبول عذره، وهوَّن عليه، بألَّا يخاف درَكاً ولا يخشى.

ولله ذاك المدير الذي لمَّا جاءه أحد موظفيه معترفاً بزلته، معلناً توبته، ملقياً معذرته، قبل عذره، وعفا عنه، وأعانه على التوبة.